من الدستور الإلٰهى

﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ منْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجداً وَقَائماً يَحْذَرُ الآخرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّه ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذينَ لا يَعْلَمُونَ ، إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

﴿ فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فرْقَة مِّنْهُمْ طَائفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فى الدِّينِ وَلِيُنذرُواْ قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُواْ إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذينَ أُوتُواْ الْعلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّكَ فَيُؤْمنُواْ به فَتُخْبتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذينَ آمَنُواْ إلَى صرَاطٍ مُّسْتَقيمٍ ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) العلق : ١ - ٥

(٢) الزمر : ٩

(٣) التوبة : ١٢٢

(٤) الحج : ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الموضوع

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وبفضله تتنزل الخيرات ، وبتوفيقه تتحقق الغايات ، الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على البشير النذير ، والسراج المنير ، سيدنا وإمامنا ، وأسُوتنا وحبيبنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومَن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد . .

فقد تعرفت على التصوف مبكراً عن طريق كتبه ، وعن طريق أحد أعلامه ، وهو الإمام أبو حامد الغزالي الذى أعتبره شيخي الأول رضى الله عنه .

كنت في الخامسة عشر من عمري ، بعد أن أنهيت السنة الأولى من القسم الابتدائى بمعهد طنطا ، وكان عندى نهم للقراءة في غير المقررات الرسمية من كتب الأزهر .

وكانت قراءتي في طنطا - خارج الدراسة - في كتب الأدب ، وخصوصاً أدب المنفلوطي في نظراته ، وعَبَراته ، وروايات ، التى كان جيلنا يبدأ بها قراءته وتكوينه الأدبي ، ولهذا كنت تجد البطاقات الخاصة بالمنفلوطى فى دار الكتب بطنطا ، شبه بالية ، لكثرة تقليبها في الأيدى .

أما قراءتي في قريتي - صفط تراب - فلم يكن فيها دار كتب ، ولم تكن كتب الأدب مما يتيسر وجوده فى مثل تلك القري ، وفي ذلك العصر . لهذا حين أردت أن أقرأ وجدت كتب التصوف هي المتاحة لى .

* *

● اتصالى بالإمام الغزالى مبكراً :

شاء القدر أن يهيئ لى كتابين كلاهما للغزالى . أحدهما : وجدته بين كتب زوج خالتى [1] وكان رجلاً صالحاً حافظاً لكتاب الله ، يعيش فى خدمة بيت الله ، قلَّما يخالط الناس ، رحمه الله . هذا الكتاب هو « منهاج العابدين » الذى صنفه الغزالى قبل وفاته بقليل .

وقد وجدت متعة كبيرة فى قراءة هذا الكتاب ، واستعنت به فى دروسى ووعظى فى تلك المرحلة ، وإن كان لى عليه مآخذ وملاحظات ، وخصوصاً فى باب التوكل والزهد ، وما فيه من توجهات حكايات تتسم بالمبالغة والإفراط .

والثانى : « إحياء علوم الدين » فقد كان يقتنيه جار لنا ، من نبهاء أهل القرى ، الذين كان لهم حظ من الاطلاع على بعض كتب الشافعية فى العبادات ، وخصوصاً فى الطهارة والصلاة ، ولهم مجالسة للمشايخ والعلماء ، وكان تلميذاً لأحد مشايخ الطريق فى بلدتنا ، وهو الشيخ محمد أبو شادى ، الذى كان خليلياً ، ثم استقل بطريقة قوامها : العبادة والذكر ، ثم قراءة « الإحياء » وشعارها الذى يحفظه مريدوها : مَن جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده ، فإن كان ولا بد من ذكر غيره ، فليذكر الآخرة ، وليذكر الصالحين ! (اعتبروا ذكر الآخرة مغايراً لذكر الله ، وهو غير صحيح ، لأن ذكر الآخرة يعنى : ذكر لقاء الله وحسابه وجزائه) .

وقد شهدت بعض « حَضَراتهم » ولم أستمر معهم ؛ إذ لم يشبعوا كل نهمى ، ولم يوافقوا مزاجى الوَسَطى .

فهذا ما جعل جارنا الشيخ بيومى [2] رحمه الله يحرص على اقتناء كتاب « الإحياء » الذى أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم فى إجازات الصيف ، وخصوصاً : ربع « المهلكات » وربع « المنجيات » منه . مع تحفظى شخصياً على بعض ما فيه من غلو ، لم يكن ملائماً لطبيعتى ، ولكنى كنت أتأثر بما فيه من رقائق ، وترتعش جوانحى ، ويترقرق دمعى ، وهذا من دلائل إخلاص الغزالى رحمه الله .

---

(١) هو الشيخ طنطاوى مراد رحمه الله . (٢) هو الشيخ بيومى العزونى رحمه الله .

ولما رآنى الشيخ بيومى حريصاً على الكتاب ، تركه لى هدية ، وقد بقى عندى ، حتى إنى اصطحبته معى إلى المعتقل سنة ١٩٤٩ ، هو وبعض أجزاء من « العقد الفريد » لابن عبد ربه فى الأدب .

وفى المرحلة الثانوية تعرفت على بعض كتب التصوف الأخرى مثل : شرح ابن عجيبة لحكم ابن عطاء الله السكندرى ، وبعض كتب الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، وغيرها .

* *

● اتصالى بدعوة الإخوان وتوجهاتها الربَّانية :

وفى تلك المرحلة توثق اتصالى بدعوة الإخوان المسلمين ، وهى دعوة ربانية الأساس والوجهة ، وقد كان مؤسسها - الإمام حسن البنا - رجلاً ربانياً ، بدأ صوفى النشأة ، ثم تحرر من قيود الشكلية الصوفية ، مبقياً على جوهرها . وهو سمو الروح ، وطهارة القلب ، ومحاسبة النفس ، وصدق الصلة بالله تبارك وتعالى ، وسلامة الصدر من الأحقاد ، والحب فى الله ، والبغض فى الله .

وقد تجلَّى ذلك فى شعارات الجماعة مثل : « الله غايتنا ، والرسول قدوتنا » ، كما تجلى ذلك فى مناهج تربيتها ، ومظاهر نشاطها ، حتى قال الشيخ البنا : إن دعوتنا دعوة سَلَفية ، وحقيقة صوفية ، وطريقة سُنِّية ، وهيئة سياسية . . . . إلخ .

وكانت وسائل الإخوان فى التربية والتوجيه تؤكد هذا الجانب وتعمقه ، مثل : الأسرة ، والكتيبة ، والمخيم . . وتركيزها على الذكر والبساطة والتلاوة للقرآن والمأثورات من الأدعية ، وحب الخير للناس .

* *

● أثر أستاذنا البهى الخولى :

وزاد هذا الجانب تعميقاً فى فكرى ونفسى : اتصالى بأستاذنا البهى الخولى رحمه الله ، وهو رجل ذوَّاقة للمعانى الربانية ، عميق الحاسّة الروحية ، وقد كان يرأس الإخوان فى الغربية ، وكانت له محاضراته ودروسه التى يظهر فيها الجانب الربانى ، والتى تجسمت بوضوح فى كتابه « تذكرة الدعاة » الذى قدَّم له الشهيد البنا .

وكان للأستاذ البهى لقاءات خاصة مع مجموعة من الشباب ، اصطفاهم - كنت واحداً منهم - نصلى الفجر معاً كل أسبوع ، ونذكر الله عَزَّ وجَلَّ ، ونعيش فى جو روحى محلِّق ، وقد أطلق على هذه المجموعة اسم « كتيبة الذبيح » ، يعنى بالذبيح : إسماعيل عليه السلام ، الذى أسلم عنقه طاعة لله دون تلكؤ ولا تردد ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

* *

● الشيخان : الأودن وعبد الحليم محمود :

وفى دراستى العالية بكلية أصول الدين لقيت بها بعض شيوخنا الربَّانيين ، الذين عمقوا فىَّ هذا الجانب الروحى أو الربَّانى ، أبرزهم اثنان : الأول هو شيخنا محمد الأودن أستاذ الحديث ، والثانى : هو شيخنا عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة ، الأول أزهرى معمم ، والثانى أزهرى متخرج فى فرنسا ، يلبس - حينذاك - « البذلة » ولا يلبس العمامة . وكان لكل شيخ منهما طريقته وتأثيره . الأول يؤثر بقوة كلامه وتدفقه ، والثانى يؤثر بصمته وتعمقه . الأول محرض ضد الباطل ، فهو أقرب إلى الروح الثورية ، والثانى داعية إلى الزهد والإقبال على الله . وكان الأول بروحه وثوريته وقوة منطقه ، وسخائه فى بيته ، وتواضع مظهره أقرب إلى نفسى وإلى طبيعتى ، وإن كنت أحب الشيخ عبد الحليم وأقدِّره . وقد درسنى الفلسفة فى السنة الثالثة والسنة الرابعة من الكلية ، على حين لم يدرسنى الشيخ الأودن ، وإنما كانت زيارتى له فى بيته بضاحية الزيتون .

كل هذا قوَّى المعانى الربَّانية فى نفسى ، وزادها عمقاً فى كيانى ، ولم تكن عائقاً عن عملى فى « الدعوة » الذى شغل جهدى ووقتى ، بل كان دافعاً ومعيناً .

ولقد اتسعت دراستى للتصوف فى تلك الفترة ، كما اتصلت اتصالاً أعمق ، بـ « المدرسة السَّلَفية » وإماميها المجدَّدَيْن : ابن تيمية وابن القيم ، وقد أعجبت بالنظرة الشمولية التجديدية المتوازنة فى هذه المدرسة ، ومقاومتها لما دخل على الإسلام من تحريفات وانحرافات فى الفكر أو فى السلوك . ووجدت فى انتاج هذه المدرسة ما قوَّى عندى التوجه الربَّانى بضوابطه الشرعية .

---

(١) الصافات : ١٠٢

وهكذا كان التصوف عندى فكراً وروحاً وخُلُقاً ، لا عهداً على شيخ ، ولا التزاماً بطريقة من الطرق الصوفية المعروفة ، فقد أغنتنى دعوة الإخوان عن أى طريقة ، وأغنانى إمامها وأصحابه عن البحث عن شيخ رسمى من مشايخ الطريق .

كما صرفنى عن الطرق ما دخل عليها من خلل واضطراب فى الفكر ، وفى السلوك ، وكذلك فَقد أهل الصدق والإخلاص فى صفوف قوادها ، إلا من رحم ربك ، وغلبة الاتجار بالاسم والزى واللقب على الكثيرين .

ولا غرو أن يلمس المراقب المنصف فى جنبات كثير من التصوف المعاصر : الشركيات فى العقيدة ، والبدع فى العبادة ، والسلبية فى الأخلاق ، والشكلية فى الذكر ، والتسيب فى الفكر . .

ومع هذا لم أتخذ موقفاً عدائياً من التصوف كله ، بل ظللت أنتفع به ، وأقتبس منه ، فى محاضراتى وخطبى ، وفى مؤلفاتى وكتبى .

* *

● **مواقف عملية معبِّرة :**

وفى « ملتقى الفكر الإسلامى » الذى عُقد فى الجزائر سنة ١٩٨٧ - على ما أذكر - كان موضوعه « الإسلام والحياة الرَوحية » وطلب إلىَّ منظمو الملتقى أن أفتتحه بمحاضرة أساسية عن « منهج القرآن والسُّنَّة فى إقامة الحياة الروحية » .

وألقيتُ هذه المحاضرة ، وكانت مرتجلة ، ولكنها مُعَدَّة إعداداً طيباً ، موثقاً بالأدلة الناصعة من الكتاب وصحيح السُّنَّة ، مستأنساً بأقوال ربانيى الأمة ، ولا سيما كبار شيوخ الصوفية المشهود لهم بالاستقامة والفضل . ولقد لاحظت أن المحاضرة شدَّت جمهور الحاضرين ، وكان لها تأثير بالغ على نفوسهم ، حتى قام صديقنا الدكتور سعيد رمضان البوطى ، وقال : لقد ظهر لنا أن الشيخ القرضاوى صوفى مقنَّع ! يريد أن يخفى صوفيته بقناع العقلانية والسَلَفية !

وقال لى صوفى جزائرى كبير معروف ، ونحن على مائدة الغداء : لقد منحك الله شيئاً ، به يتميز كلامك عن غيره ، قلت : وما هو ؟ قال : اللَّوعة ! قلت : ماذا تعنى ؟ قال : فى كلامك حرقة غير مصطنعة ، تؤثر فى سامعيك وهى هبة ربَّانية ، يختص الله بها من يشاء من عباده .

وأذكر أنى فى جلساتنا مع شيخنا البهى الخولى رحمه الله ، كنت أنقد بعض كلمات الصوفية وبعض مواقفهم ، فكان يحسبنى متمرداً على التصوف كله ، فلما أخرجت كتابى « العبادة فى الإسلام » وكتابى « الإيمان والحياة » قال لى : إنك تحمل قلب صوفى خدعنا عنه عقل الفقيه !

وفى زيارتى لندوة العلماء ودار العلوم بمدينة لكهنو بالهند ، فى أوائل الثمانينات ، ألقيت عدداً من المحاضرات فى موضوعات فكرية متعددة كان لها وقعها وأثرها ، ولكن أهم ما لفت نظرى قول الإخوة من علماء الندوة وأساتذة الدار : إننا اكتشفنا أنك من رجال التربية الروحية !

ويبدو أن الجميع يعتقدون أن سَلَفية الداعية ، وعقلانية المفكر ، تتعارضان مع النزعة الربَّانية أو الروحية ، وهذا فى رأيى غير صحيح ، فقد كان ابن تيمية وابن القيم سَلَفيين وهما ربَّانيان . وكان الغزالى عقلانياً ، وهو ربَّانى . فلا تناقض بين هذه الأمور إذا فُهِمَت على وجهها السليم ، ووُضِعَ كل منها فى موضعه الصحيح ، وإن كانَ بينى وبين هؤلاء الربَّانيين مراحل ومراحل . . وأسأل الله العفو والمغفرة .

* *

● موقفى النظرى من التصوف :

وقد بينت موقفى من التصوف فى الجزء الأول من كتابى « فتاوى معاصرة » فى فتويين من فتاواه [1] ، وهو موقف يتميز بالإنصاف ، والاعتدال فى تقويم التصوف ، فلست مع المفْرطين فى مدحه ، ولا من المبالغين فى قدحه .

فأحمد الله أن هدانى إلى الموقف الوَسَط ، الذى لا يطغى فى الميزان ولا يُخسر الميزان ، كما علَّمنا الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلا تَطْغَوْاْ فِى الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ ﴾ [2] . فالعدل بين الطغيان والإخسار ، بين الإفراط

---

(١) انظر فتوى « حقيقة الصوفية » ، وفتوى « التصوف بين مادحيه وقادحيه » فى الجزء الأول من « فتاوى معاصرة » ص ٧٣٤ - ٧٤٣ - الطبعة الخامسة : دار القلم ودار الوفاء .

(٢) الرحمن : ٧ - ٩

والتفريط ، فقد ذكرت ما للتصوف وما عليه ، ولا ينكر أحد أثر التصوف والمتصوِّفة فى الحياة الإسلامية ، فكم أسلم على أيديهم من كافر ، وكم تاب على أيديهم من عاص ، وكم رققوا من القلوب ، وزكوا من النفوس ، وهذَّبوا من الأخلاق ، فلنذكر هذا لهم ، بجوار ما نذكر من سقطات وشطحات ، والمتقدمون فيهم - بصفة عامة - أفضل من المتأخرين .

* *

● فتوى ابن تيمية عن التصوف والصوفية :

ولقد وجدت شيخ الإسلام ابن تيمية - مع صرامته فى الالتزام بمنهج السَّلَف ، وشدته فى مقاومة البدع - يقف من التصوف والصوفية هذا الموقف الوسط العدل ، وهذا من إنصافه وسعة علمه ، ورحابة أُفقه ، رضى الله عنه .

وقد نقلت عنه فى فتواى الثانية عن التصوف قوله بعد أن سئل عن الصوفية ، فكان جوابه الذى ذكره فى رسالته عن « الفقراء » وهو أعدل ما قيل فى القوم ، قال رحمه الله :

« تنازع الناس فى طريقهم : فطائفة ذمَّت « الصوفية والتصوف » وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السُّنَّة ، ونقل عن طائفة من الأئمة فى ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء . . وكلا طرفى هذه الأُمور ذميم .

والصواب : أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله . ففيهم « السابق » المقرَّب بحسب اجتهاده ، وفيهم « المقتصد » الذى هو من أهل اليمين ، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم مَن يُذنب فيتوب أو لا يتوب .

ومن المنتسبين إليهم مَن هو « ظالم لنفسه » ، عاص لربه .

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم ، كالحلاج مثلاً ، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه ، وأخرجوه عن الطريق ، مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره » [1] . . والله أعلم .

* *

---

(١) من رسالة « الفقراء » لابن تيمية .

● **تقويم ابن القيم للصوفية :**

وكذلك أنصف الصوفية الإمام ابن القيم ، كما تجلَّى ذلك فى شرحه الواسع العميق المتوازن لرسالة العلامة الهروى « منازل السائرين » . وقد كان ابن القيم يعظم الهروى ويقدِّره ، لأنه كان حنبلياً ، وتوجهه فى فهم العقيدة وبيانها توجه سَلَفى ، ولا عجب أن يُطلق عليه لقب « شيخ الإسلام » ، ولهذا حاول أن يشرح كلامه شرحاً يُقرِّبه إلى منهج الكتاب والسُّنَّة ، وهدَىْ سَلَف الأمة ، ويحمله على أفضل الوجوه الممكنة ، ومع هذا لم يملك فى كثير من الأحيان إلا أن ينكر عليه [1] ، فالحق أحق أن يُتَّبع ، والرجال يُعرفون بالحق ، وليس الحق يُعرف بالرجال .

ومن أوضح ما تبين فيه ذلك التوجه المنصف المعتدل قوله فى شرح ما ذكره الهروى عن منزلة « الرجاء » وما جاء فيه من شطحات وتجاوزات :

« شيخ الإسلام حبيب إلينا ، ولكن الحق أحب إلينا منه ! وكل مَن عدا المعصوم - صلى الله عليه وسلم - فمأخوذ من قوله ومتروك » .

وبعد محاولة من ابن القيم لحمل كلام الهروى على أحسن المحامل قال :

« هذا ونحوه من الشطحات التى تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات . ويستغرقها كمال الصدق ، وصحة المعاملة ، وقوة الإخلاص ، وتجريد التوحيدت ، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ .

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس . إحداهما : حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ، ولطف نفوسهم ، وصدق معاملتهم ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية الإنكار . وأساءوا الظن بهم مطلقاً وهذا عدوان وإسراف . فلو كان كل مَن أخطأ أو غلط تُرِك جملة ، وأُهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات ، والحكم ، وتعطلت معالمها .

والطائفة الثانية : حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم ، وصفاء قلوبهم ، وصحة عزائمهم ، وحُسْن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ، ونقصانها . فسحبوا عليها ذيل المحاسن . وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها . واستظهروا بها فى سلوكهم .

---

(١) انظر نموذجاً لذلك : ما ذكرناه فى كتابنا « الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم » فصل « ترك الطعن والتجريح » ص ٢٣٣ ، ٢٣٤

وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون .

والطائفة الثالثة : - وهم أهل العدل والإنصاف - الذين أعطوا كل ذى حق حقه ، وأنزلوا كل ذى منزلة منزلته ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح . بل قبلوا ما يُقبل . وردوا ما يُرد .

وهذه الشطحات ونحوها هى التى حَذَّر منها سادات القوم ، وذموا عاقبتها . وتبرؤا منها ، حتى ذكر أبو القاسم القشيرى فى رسالته : أن أبا سليمان الدارانى رؤى بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى . وما كان شىء أضر علىَّ من إشارات القوم .

وقال أبو القاسم : سمعت أبا سعيد الشحَّام يقول : رأيت أبا سهل الصعلوكى فى المنام ، فقلت له : أيها الشيخ ، فقال : دع التشييخ . فقلت : وتلك الأحوال ؟ فقال : لم تغن عنا شيئاً ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بمسائل كانت تسأل عنها العجائز .

وذكر عن الجريرى : أنه رأى الجنيد فى المنام بعد موته ، فقال : كيف حالك يا أبا القاسم ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات . وفنيت تلك العبارات . وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات » [1] .

* *

● التصوف باعتباره تراثاً تربوياً :

هذا والتصوف باعتباره تراثاً فى التربية الأخلاقية والسلوك الإيمانى ، لا يمكن الاستغناء عنه ، كما لا يمكن الاستغناء عن تراث الفقه فى معرفة الأحكام الظاهرة .

ولهذا ظل فى نفسى خاطر يراودنى من زمن ، وهو الكتابة فى هذا الجانب الروحى ، أو الربانى ، أو الإيمانى ، أو الأخلاقى ، الذى سماه العلامة أبو الحسن الندوى « ربانية لا رهبانية » ، كتابة تستمد من القرآن والسُّنَّة ، وتستفيد من سَلَف الأمة ، ومن تراث القوم الرحب ، وتزنه بميزان الشريعة المعصومة ، وتصله بقيم الإسلام الشامل المتوازن ، وتترجمه إلى لغة العصر ، بحيث يفهمه طالبوه ، ويتعاملون معه بيسر .

* *

---

(١) انظر : « مدارج السالكين » : ٢/ ٣٧ - ٤٠ - طبع السُّنَّة المحمدية بمصر .

● **ما ثبطنى عن الكتابة فى السلوك :**

بَيْد أنه كان مما يثبطنى عن ذلك : ما أعلمه عن نفسى من تفريط فى جنب الله تعالى ، وتقصير فى طاعته سبحانه ، وأن جناحى مهيض عن الطيران فى هذه الأجواء العليا ، فكيف ألقى بنفسى فى بحر خضم لا أُحسن السباحة فيه ، ولا الغوص فى أعماقه ؟

وإذا كان لى فضل هنا - والفضل لله وحده - فهو أنى أعرف نفسى جيداً ، ولا تستطيع بمكرها أن تخدعنى عن سبر غورها ، وكشف زيفها ، ولم يغرّنى عن استبانة حقيقتها مدحُ الناس لى ، وثناؤهم على شخصى ، وذلك لأن الخلق يتعاملون مع الظواهر لا مع السرائر ، مع القشور لا مع اللُّباب ، مع السطوح لا مع الأعماق .

وأنا أتمثل دائماً بقول ابن عطاء الله فى حكمه : « الناس يمدحونك بما يظنونه فيك ، فكن أنت ذامّاً لنفسك لما تعلمه منها . . أجهل الناس مَن يترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس » !

وكم أخجل من نفسى - والله - حين يضفون علىّ من الأوصاف ما لست أهلاً له ، وهذا من جميل ستر الله على عباده ، وما أجمل ما قاله أبو العتاهية :

أحســـن الله بنا أن الخطايا لا تفـوح
فإذا المستور منـا بين جنبيه فضوح

وفى هذا قال ابن عطاء أيضاً :

« المؤمن إذا مُدح استحيا من الله أن يُثنَى عليه بوصف لا يشهده من نفسه ! إذا أُطلق الثناءُ عليك ولستَ له بأهل ، فاثن عليه - تعالى - بما هو أهله ! مَن أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ، فالحمد لمن سترك ، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك » !

وكثيراً ما كنت أتمثل - عندما يمدحنى مادح أحسن بى ظنه - بقول الشاعر الصالح يناجى ربه :

يظنون بى خيراً وما بىَ من خير ولكننى عبد ظلوم كما تدرى !

سترتَ عيوبى كلها عن عيونهم وألبستنى ثوباً جميلاً من الستر
فصاروا يحبونى ، وما أنا بالذى يُحَب ، ولكن شبهونىَ بالغير !
فلا تفضحَنّى فى القيامة بينهم وكن لى يا مولاى فى موقف الحشر

كان حيائى من ربى ، ثم من نفسى وتقصيرى ، حائلاً بينى وبين الدخول فى علم السلوك ، رغم طلب عدد من إخوانى وتلاميذى أن أكتب فى ذلك للناس شيئاً ، لعل الله ينفع به .

ثم قوّى عزمى على ذلك قوة رجائى فى رحمة الله تعالى ومغفرته وإحسانه ، وأنى إن لم أكن أهلاً أن أنال رحمته ، فرحمته أهل أن تنالنى ، وقد قرأت فى الصحيح : أن رَجُلاً جاء يسأل النبى ﷺ عن الساعة ، فقال له : « وما أعددت لها » ؟ قال : والله ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحب الله ورسوله ! قال : « أنت مع مَن أحببت » (١) .

فما فرح الصحابة بشىء فرحهم بهذا الحديث ، ليقينهم بأنهم يحبون الله ورسوله .

وقيل للنبى ﷺ : الرجل يحب القوم ، ولما يلحق بهم ! قال : « المرء مع مَن أحب » (٢) .

بل صح أن رجلاً جىء به إلى رسول الله ﷺ مرات كثيرة فى شرب الخمر ، وهو يُضرَب ، ثم يعود ، حتى قال بعض الصحابة ، ما أكثر ما يؤتى به ، لعنه الله ! فقال النبى ﷺ : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » (٣) .

---

(١) متفق عليه عن أنس : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان برقم (١٦٩٣) .

(٢) متفق عليه عن أبى موسى : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان برقم (١٦٩٤) .

(٣) روى البخارى عن عمر بن الخطاب : أن رجلاً كان على عهد النبى ﷺ ، كان اسمه عبد الله وكان يلقب « حمارا » ، وكان يضحك رسول الله ﷺ ، وكان النبى قد جلده فى الشراب ، فأُتى به يوما ، فأمر به فجُلد ، فقال رجل من القوم : اللَّهُمَّ العنه ، ما أكثر ما يؤتى به ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنوه ، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله » .
رواه البخارى فى كتاب « الحدود » - البخارى مع الفتح جزء ١٢ حديث (٦٧٨٠) .

وأنا أرجو أن أكون ممن يحب الله ورسوله ، ويحب الصالحين من عباده ، وإن لم يكن منهم : كما قال القائل :

أُحب الصالحين ولستُ منهم ... عسانى أن أنالَ بهم شـــفاعة !

وأكرهُ مَن بضاعتُه المعـــاصى ... وإن كنا ســـواءً فى البضاعـــة !

* *

● حاجة الناس إلى الحياة الربَّانية والتربية الإيمانية :

لقد تبين لى من خلال التجربة العملية ، والممارسة الميدانية ، مع عوام الناس ومع مثقفيهم ، مع الغافلين منهم ، ومع العاملين فى الجماعات الإسلامية المختلفة ، أن الجميع أفقر ما يكونون إلى تربية إيمانية صادقة ، تغسل قلوبهم من حب الدنيا ، ومن حب أنفسهم ، وتأخذ بأيديهم إلى الله تبارك وتعالى ، وتحررهم من العبودية للأشياء وللأهواء وللأوهام ، ليعتصموا بالعبودية لله وحده ، وبذلك يطهرون عقولهم من الشرك ، وقلوبهم من النفاق ، وألسنتهم من الكذب ، وأعينهم من الخيانة ، وأقوالهم من اللَّغو ، وعباداتهم من الرياء ، ومعاملاتهم من الغش ، وحياتهم من التناقض .

وبعبارة أُخرى : هم فى حاجة إلى « التزكية » للنفوس ، التى لا فلاح بغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١) .

والتزكية من الزكاة ومعناها : الطهارة والنماء ، والطهارة تعنى : التخلى عن النفاق والرذائل ، والنماء يعنى : التحلى بالإيمان والفضائل ، فهى - كما يقول أهل السلوك - تخلية وتحلية .

ولقد جعل القرآن من مهمة الرسول الأساسية : « التزكية » مع تلاوة آيات الله ، وتعليم الكتاب والحكمة ، كما جاء ذلك فى أربع آيات من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

---

(١) الشمس : ٧ - ١٠ (٢) آل عمران : ١٦٤

ولقد قام النبى ﷺ بمهمته خير قيام ، وربّى أفضل جيل عرفته البَشرية : إيماناً وتعبداً ، وخُلُقاً وبذلاً ، وجهاداً فى سبيل الله ، وكان هذا الجيل النموذجى معلّماً للبَشرية كلها من بعد .

والناس أحوج ما يكونون إلى التأسى بهذا الجيل الربَّانى ، والتخلق بأخلاقه التى وصفها الله فى آخر سورة الفتح ، وتحقيق « شُعَب الإيمان » السبعة والسبعين فى حياتهم حتى يرضى الله عنهم ، وحتى يصلوا إلى درجة «الإحسان » الذى عرَّفه الرسول الكريم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » كما جاء فى حديث جبريل المشهور .

إنهم فى حاجة إلى معرفة عيوب النفس ، وأمراض القلوب ، ومجامع الهوى ، ومداخل الشيطان ، وكيف يتقيها المسلم ما استطاع . فالوقاية أسلم ، وكيف يعالجها إذا سقط فيها ، فما جعل الله داء إلا جعل له شفاء ، علمه مَن علمه ، وجهله مَن جهله .

ولكن الخطر هو اهتمام الناس بأمراض أبدانهم ، وغفلتهم عن أمراض قلوبهم ، وإذا تنبهوا لها ، فأين يجدون أطباء القلوب ؟ والمفروض أنهم العلماء ، بَيْد أن العلماء أنفسهم باتوا من جملة المرضى ، فلا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله !

وقد قال الشاعر :

بالملح يصلح ما يخشى تغيره فكيف بالملح إن حلّت به الغِيرُ ؟!

لكن الخير لن ينقطع عن هذه الأُمة ، ولا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة .

إن الحياة المادية المعاصرة : رحىً طحون ، والناس هم الحَبّ المحصور بين حجريها الكبيرين ، تطحنهم طحناً ، ثم بعد ذلك يُعجنون ويُخبزون ، ولا تنضجهم إلا النار !

ولا سبيل أمام البشرية عامة ، والمسلمين خاصة ، إلا بالحياة الربَّانية .

إنهم فى حاجة إلى « ربانية نقية » ترفعهم من حضيض عِبَاد الشيطان ، إلى ذُرا عباد الرحمن ، وتنقلهم من تعاسة عبودية الدينار والدرهم ، وعبودية الدنيا ، إلى سعادة التحرر منها ، وعز طالب الآخرة . إنهم فى حاجة إلى « الصدق مع الحق ، والخُلُق مع الخَلْق » ، وهذا ملخص التصوف ، أو هو تقوى الله

والإحسان إلى خلقه ، وهذا هو الدين كله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى فى ختام سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (١) .

نريدها « ربانية نقية » واضحة الغاية ، بيِّنة الطريق ، مستقيمة على أمر الله ، متبعة لسُنَّة رسول الله ﷺ ، ماضية على نهج السَّلَف ، بعيدة عن بدع القول والعمل ، وانحراف الاعتقاد والسلوك ، تسمو بالروح ، وتزكى النفس ، وتحيى الضمير . تجدد الإيمان ، وتصلح العمل ، وترقى بالأخلاق ، وتنمى حقيقة الإنسان !

لا نريدها دروشة منحرفة ، ولا رهبانية مغالية ، ولا مظهرية زائفة ، ولا نظريات فلسفية بعيدة عن روح الإسلام ، ووسطية الإسلام .

* *

● موقف بعض السَّلَفيين من التصوف :

وأود أن أنبه هنا : أن بعض الإخوة السَّلَفيين يغالون فى الموقف من التصوف ، ويعتبرونه كله شيئاً دخيلاً على الإسلام ، ويتهمون أهله كلهم بالابتداع والانحراف ، كما يتضح ذلك من تعليقات العلامة الشيخ محمد حامد الفقى رحمه الله ، على كتاب « معارج السالكين » لابن القيم ، ومثله كثير من أتباع المدرسة السَّلَفية ، الذين أرسلوا أقلامهم وألسنتهم شواظاً من نار على التصوف كله . وعلى أتباعه جميعاً ، قديماً وحديثاً ، وهذه مبالغة غير صحيحة ، وغير مقبولة ، وغير نافعة .

* *

● ابن تيمية وابن القيم رجلان ربَّانيان :

ومن العجيب أن هؤلاء ينتمون إلى مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ، وهما من الربانيين الصادقين نظرياً وعملياً . .

نظرياً . . كما تدل على ذلك كتاباتهما ، فابن تيمية له رسائل فى التصوف والسلوك بلغت مجلدين من مجموع فتاويه ، بالإضافة إلى كتابه « الاستقامة » الذى صدر فى جزأين بتحقيق الدكتور رشاد سالم رحمه الله .

---

(١) النحل : ١٢٨

وابن القيم له مجموعة كبيرة من المؤلفات ، مثل : الجواب الكافى ، وطريق الهجرتين ، وعدة الصابرين ، وروضة المحبين ، وأعظمها وأوسعها من غير شك : مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وعملياً .. كما دلّت على ذلك سيرة الرجلين ، وصلابتهما فى الحق ، وصبرهما على الأذى ، وجهادهما فى سبيل الله ، وحبهما لله ورسوله ، وإقبالهما على الله تعالى ، إقبالاً يشهد به كلُّ مَن عرفهما واقترب منهما ، رضى الله عنهما .

حسبك من ابن تيمية أنه تقبَّل المحن والسجن فى سبيل الله ، بنفس راضية ، وقلب مطمئن ، قائلاً : « إن جنَّتى فى صدرى ، حيثما ذهبت فهى معى ، ماذا يصنع أعدائى بى ؟ إن سجنونى فسجنى خلوة ! وإن نَفَوْنى فنفيى هجرة ! وإن قتلونى فقتلى شهادة » !

وحين أُدخل القلعة ليُسجن ، ورأى سورها ، ذكر قول الله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (١) .

إنها الربانية التى تستعذب العذاب فى سبيل الله ، وتعيش فى جنَّة الرضا مهما أصابها فى ذات الله .

ومن إنصاف ابن تيمية : أنه أثنى على كثير من مشايخ الصوفية ، ومنهم الشيخ عبد القادر الجيلانى ، الذى نقل عنه بعض كلماته فى « القَدَر » ونوّه بها ، وكذلك ابن القيم .

وهذا ما ينقص كثيراً ممن يدَّعون الانتساب إلى مدرسته ، ولا تجد لأحدهم

---

(١) الحديد : ١٣

عينا تدمع ، ولا قلباً يخشع ، ولا جسداً يرتعش ، من خشية الله تعالى ، ولا تحس لديهم تلك العاطفة الندية الدافقة بحب الله تعالى ورسوله .

ولكنه الاتباع الآلى الجاف الصارم ، كأنما هو ترس فى ماكينة ، يُدار فيدور ، ولا روح له ، ولا حياة فيه !

وفى مقابل هؤلاء صنف يتمتع بالعاطفة الحارة ، والوجدان الحق ، والروح الفيَّاض بالحب والخشية ، ولكنه غير منضبط بضوابط الشرع ، يَحْكمه ذوقه ووجدانه ، أو ذوق مشايخه ووجدانهم ، وهؤلاء هم أكثر المتصوفة ، أعنى المخلصين منهم .

وكلا الصنفين أفرط فى ناحية وفرّط فى أخرى ، والخير كل الخير فى الوَسَطية المتميزة عن طرفى الإفراط والتفريط .

* *

● تصويف السَّلَفية ، وتسليف الصوفية :

لهذا كان من الخير أن نطعّم كل واحد من الصنفين أو الطرفين بالمزايا التى عند الطرف الآخر ، وهو ما عبَّر عنه المفكر المسلم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله بقوله : نسلِّف الصوفية ، ونصوِّف السَّلَفية !

وبهذا التطعيم ينشأ صنف جامع لمزايا الفئتين ، منزَّه عن عيوب كل منهما .

وأحسب أن هذا ما حاوله الإمام حسن البنا الذى كان يجمع - فى رأيى - عقلية السَّلَفى الملتزم ، وروحانية المتصوف المحلِّق .

وهذا ما أحاول أن أصل إليه بإصدار هذه السلسلة التى أدعو الله أن يوفقنى فيها ، لأبين فيها لسالكى الطريق إلى الله تعالى : ما ينبغى علمه وعمله ، حتى يجوزوا عقباته ، ويقطعوا مراحله ، ويتخطوا عوائقه ، بيقين أهل المعرفة ، وعزيمة أهل الصبر ، ونية أهل الإخلاص ، وجهاد أهل الصدق ، وثبات أهل الإيمان ، وإحسان أهل المحبة .

* *

● **منهجنا فى هذه الدراسة :**

وسأجتهد فى هذه الدراسة : أن نرد التصوف إلى جذوره الإسلامية ، مستمدين من محكمات القرآن الكريم وصحيح السُّنَّة المطهرة ، وأن أنقى التصوف الحق مما علق به من شوائب كدرت صفاءه ، وشابت جوهره ، مما تأثر به من مصادر أجنبية غريبة عن طبيعة الإسلام وَوَسطيته ، ومما دخل عليه من أوهام البشر وأهوائهم وتجاوزاتهم المائلة إلى الغلو حيناً ، وإلى التقصير حيناً آخر ، ودين الله - كما قال سَلَف الأُمة - بين الغالى فيه والجافى عنه .

وقد كان مما أثر فى التصوف جملة أشياء ، منها :

١ - قبول « الإسرائيليات » التى جاء بها مَن أسلم من أهل الكتاب ، وكثير منها لا يوجد له أصل فى كتبهم المعروفة ، مما يدل على أنها من حكايات العوام بعضهم لبعض .

٢ - أخذ كل ما يروى من الأحاديث النبوية مأخذ التسليم ، دون تمييز بين ما يُقبل وما يُرد ، بناء على ما قيل من أن الحديث الضعيف يُعمل به فى فضائل الأعمال ، وفى الترغيب والترهيب ونحو ذلك ، ورغم أن هذا ليس متفقاً عليه ، فإن الذين قالوه اشترطوا لقبول الضعيف شروطاً لم يراعها المتصوفة فى الغالب ، حتى إنهم رووا الأحاديث الضعيفة جداً ، والتى لا أصل لها بالمرة ، والموضوعة المكذوبة ، وهذا شائع بينهم ومعروف .

٣ - الثقة المطلقة بشيوخهم ، فما قاله الشيخ فهو حق ، وما أمر به فهو مطاع ، دون أن يعرض ذلك على الشرع ، وقد شاع فى التربية عندهم قولهم : مَن قال لشيخه : لم ؟ لا يفلح ! المريد بين يدى الشيخ كالميت بين يدى الغاسل !! مع أن من المقرر المتفق عليه : أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويُرَد عليه ، إلا المعصوم - صلى الله عليه وسلم .

٤ - الثقة كذلك بأذواقهم ووجداناتهم الخاصة ، وما يأمر به الكشف والإلهام ، والرجوع إلى حكمها مثل حكم الشرع أو قبله ! مع أن تلك الأذواق والإلهامات ، غير مأمونة ولا معصومة ، وقد أغنانا الله عنها بالوحى الذى لا يضل ولا ينسى .

٥ - عدم الوقوف عند ما جاء به الشرع فى العبادات والأذكار والسلوكيات ، ووضع أوراد من عند المشايخ بدل الأوراد المأثورة ، واختراع عبادات أو قبول عبادات لم يأمر بها قرآن ولا سُنَّة ، وإنما هى مما أحدثه الناس ، وكل مُحْدَثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

لهذا سيكون عمدتنا هو القرآن الكريم المصدر الأول للملَّة ، والينبوع الأول للعقيدة والشريعة والتربية والسلوك ، ثم السُّنَّة المشرَّفة المبيِّنة للقرآن ، مكتفين بالصحاح والحسان من الأحاديث ، فهى التى تبيِّن موقف الإسلام من الأحكام ومن السلوك ، وما نذكره من حديث نُبيِّن مَن أخرجه ودرجته ، وعندنا من الأحاديث المقبولة ما يغنينا عن الأحاديث الواهية ، وإذا ذكرنا - فى أحيان قليلة - الضعيف ، فذلك للاستئناس به لا للاحتجاج والاستشهاد .

وسنضرب صفحاً عن الإسرائيليات إلا ما كان منها مؤيداً لما ثبت فى ديننا من فضائل ومكارم ، وكذلك عن غرائب الأقوال والحكايات التى تتسم بالمبالغة والتهويل ، ولا يقوم على صحتها دليل .

وسننقل عن كبار شيوخ القوم ما لا بد لنا منه ، لشرح المفاهيم ، وبيان الحقائق ، وتوضيح القيم ، وخصوصاً المعروفين منهم بالاستقامة والالتزام ، مثل سيد الطائفة الجنيد ، وسهل التُّسْتَرى ، وأبى سليمان ، والزهاد الأوائل مثل : الحسن البصرى ، والفضيل بن عياض ومالك بن دينار وغيرهم .

وسنقتبس من تراث القوم ما يكشف الغوامض ، وينير العقول ، ويوقظ القلوب ، ويحرك العزائم ، مثل كتب الحارث المحاسبى ، والقشيرى ، وأبى طالب المكى ، والغزالى ، وابن القيم ، وابن عطاء الله ، وغيرهم .. إلى جوار ما نأخذ من المفسِّرين والمحدِّثين والفقهاء والمربين ، من القدماء والمحدثين .

وسنبتعد عن « المصطلحات » والكلمات المثيرة للجدل والخلاف ، متوخين السهولة والتيسير والاعتدال ، فإن هدفنا أن نبنى ولا نهدم ، وأن نجمع ولا نفرق ، وإن نهدى ولا نؤذى ، والعبرة بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين .

وأملنا أن نسهم - بهذه السلسلة - فى تقريب الناس من ربهم الذى خلقهم

فسوّاهم ، لنأخذ بأيديهم إلى الله ، ونحشدهم فى ساحة رضاه ، والتخفيف من التكالب على الدنيا والغفلة عن الآخرة ، وتقوية الإيمان فى القلوب ، حتى يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، فإن لم يرق إلى هذه الدرجة ، فليطهر صدره من الغل والحسد والأحقاد والبغضاء ، فإنها هى الحالقة ، لا تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ، والتحذير من القواطع الأربعة ، التى تقطع السالكين عن طريق الله ، والتى قال فيها الشاعر :

إنى بُليتُ بأربـــع يرميـــننى ... بالـنبل عن قـوس له توتـير !

إبليس والدنيا ونفسى والورى ... يا رب أنت على الخلاص قدير !

* *

● التوازن بين فقه الأحكام وفقه السلوك :

الحق أن فقه الأحكام الفرعية العملية المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا ومعايش الناس ، قد شغل من حياتنا وفكرنا وجهدنا حيّزاً كبيراً ، خواصنا وعوامنا .

لهذا الفقه أنشئت المجامع المحلية والعالمية ، وعقدت الندوات والمؤتمرات المتخصصة ، وأنشئت الكليات والأقسام ، وألفت الكتب ما بين مبسوط ووسيط ووجيز .

هذا بالنسبة للخواص ، وبالنسبة للعوام ، قد شغلوا أنفسهم وشغلهم علماؤهم بالجزئيات والتفصيلات ، بل التعقيدات ، حتى غدا باب الطهارة يدرس للجمهور خلال شهر رمضان كله ، ثم لا ينتهون منه .

هذا .. وقد كان الرجل يأتى النبى ﷺ من باديته ، فلا يمكث إلا يوماً أو أياماً ، ثم يعود إلى قومه ، وقد فقه دينه ، بالرؤية والمشاهدة : « صلُّوا كما رأيتمونى أُصلِّى » .

ليس معنى هذا أن نهمل فقه الأحكام الظاهرة ، بل هو مطلوب وواجب ، ولكن التوازن مطلوب وواجب أيضاً : التوازن بين الظاهر والباطن ، أو بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب .

لقد جعل الإمام الغزالى « الفقه » القائم على مراعاة الظاهر وحده ،

من « علوم الدنيا » لا من علوم الآخرة ! حتى إنه عاب على أهل الفقه فى زمنه تركهم بعض فروض الكفاية المهمة للأمة ، وأكبوا على الفقه لما وراءه من مناصب القضاء والإفتاء وغيرها ، على حين لا يوجد طبيب فى البلدة إلا من أهل الذمة !

لذا كان لا بد أن نعيد لـ « فقه القلوب » مكانه ومكانته ، ونعطيه حقه من الاهتمام العلمى والعملى ، وأن نوجه عناية الخاصة والعامة إلى « فقه السلوك » ، سلوك طريق الله ، وطريق الآخرة ، فلا نجاة إلا به ، ولا صلاح بغيره ، بل لا حياة بدونه ، ولا وصول إلى الله بسواه .

إنها التجارة الرابحة التى غفل عنها أكثر الخلق : التعامل فيها مع رب العالمين ، ورأس المال لها هو العمر ، والبضاعة هى الطاعة ، والربح هو المغفرة والجنَّة فى الآخرة ، والحياة الطيبة فى الدنيا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (١) .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

فمن ضيَّع هذه التجارة ، فقد ضيَّع نفسه ، وخسر كل رأس ماله ، وفاته خير الآخرة والأولى .

على نفسه فليبك مَن ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم !

وصدق الله إذا يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) .

وخسارة رأس المال هنا لا عوض لها ، إذ لا عمر بعد العمر ، ولا تأخير إذا جاء الأجل : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) فاطر : ٢٩ - ٣٠
(٢) النحل : ٩٧
(٣) الزمر : ١٥
(٤) المنافقون : ١١

أسأله تعالى أن يجعل هذه الدراسات قبساً من العلم النافع ، وعوناً على العمل الصالح ، ونوراً يضيء الطريق ، ويجعلها لى لوناً من المجاهدة فيه ، ولا يحرمنى من الهداية التي وعدها بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

« اللَّهُمَّ إنَّا نعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن عمل لا يُرفع ، ومن دعوة لا يُستجاب لها » (٢) .

اللَّهُمَّ اجعلنا من عبادك الذين يتعلمون فيعْلَمون ، ويَعْلمون فيعملون ، ويعملون فيخلصون ، ويخلصون فيثبتون ، ويثبتون فيُقبلون .

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣) .

الدوحة فى ذى الحجة ١٤١٣ هـ - يونيو (حزيران) ١٩٩٣ م (*) .

الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوى

* * *

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) رواه مسلم . (٣) آل عمران : ٨ - ٩

(*) هذا تاريخ كتابة المقدمة ، وها أنذا أقدم الكتاب للطبع بعد سنتين : أى فى ذى الحجة ١٤١٥ هـ (يونيو ١٩٩٥ م) .